عمران دمشق

تاريخها العصري

ضاعت سيرة احمد باشا الجزّار البشناقي الذي نفذ حكمهُ في سوريا ٢٨ عاماً واخذ دمشق اربع مرات اولاها سنة ١١٩٨ كما ضاع كثير من الانباء الاخيرة . ومما يؤرخ من حوادث القرن الثالث عشر حادثة الصدر الاعظم سليم محمد باشا سنة ١٢٤٦ وقد جاء دمشق والياً بعد ان أباد جيش الانكشارية في الاستانة فهمّ ان يقتال بعض اعيان المدينة وعلمائها لانهم حالوا دون تنفيذ مآرب لهُ من ضرب خراج على عقارات دمشق فجمعهم بحجة مشورة في القلعة ولما احسوا بمكيدته ثار العامة باشارتهم فضربهم من ابراج القلعة بالقنابل ولما ضاق عليه خناق الحصار جاء في بعض رجاله الى دارٍ في باب البريد فتأثرهُ العامة وقتلوهُ وحملوهُ حرقاً

وبعد مُضي اشهر جاء دمشق ابرهيم باشا بن محمد علي باشا عزيز مصر للانتقام من عبد الله باشا والي عكاء فجعل دمشق عاصمة سورية ومنع الرشوة والمحاباة وبث قواعد المساواة وابطل المصادرات وقرّر حقّ التملك وبسط ظلّ الامن . وزاد صاحب الروضة الغناء فنشّط الزراعة والتجارة والصناعة وامر بتعميم تربية دود الحرير ودودة القرمز . واكّد لي كثيرون ان بعملهِ هذا استعادت اكثر قرى حوران وعجلون وحماة وحمص وغيرها من اصقاع الشام عمرانها الذي كانت فقدتهُ منذ عشرات من السنين . وقرّب العلماء والشعراء ورخّص للاجانب في إرسال معتمديهم الى الفيحاء وكانوا يمنعون من دخولها قبلهُ

غير ان حكمهُ كان مشوباً شأن كل داخل بالسفك والبطش . ومع انصرافهِ وجهتهِ الى التمهيد مدة مقامهِ وهو تسع سنين شيّد في بر الشام مباني عظيمة خصوصاً في دمشق تصعب محاكاتها كالمستشفى العسكري وتكن الجند ومستودع البارود وغيرها من المحال

ومن رسوم الفتح ان يخطب باسم الفاتح لكن البعض قد لا يهتمون بذلك كما فعل ابرهيم باشا فانهُ ابقى الخطبة باسم السلطان وعملت انكلترا على جلائهِ طوعاً او كرهاً كما فعلت مع نابوليون بونابرت ايام احتلالهِ مصر وبعض سواحل الشام في القرن الماضي

ومن الحوادث الخطيرة حادثة جرت منذ اربعين سنة وَنيّف بين المتاولين والمسيحيين اختلفت الآراء في اسبابها ويؤكّد بعضهم انها امرٌ دُبّر بليل عمداً . وكانت جذوة الفتنة تضطرم اولاً في لبنان ووادي التيم وجرت حروب اهلية بين المسيحيين والدروز وفتك هؤلاء

بمواطنيهم فتكاً ذريعاً في حاصبيا وراشيا وزحلة ودير القمر ثم سرت شرارتها الى دمشق فقام ارباب الدعارة من المسلمين وجاء الدروز ايضاً يقتلون وينهبون ويخربون ويحرقون . قال صاحب قطف الزهور فارسلت فرنسا باختيار الدولة العلية ورضاها عشرة آلاف جندي للمحافظة ومنع التعدي عند الاقتضاء وكذلك باقي الدول الفرنجية منها من ارسل مراكب حربية ومنها من ارسل نواباً لاصلاح الحال

وخيم جند الفرنسيس في البقاع تسعة اشهر والسفن الاجنبية ظلت راسية مدة في ميناء بيروت حتى أعاد فؤاد باشا الامن الى حاله وارجع الحكم الى نصابه فنفى بعض الاعيان لعدم ممانعتهم الاشقياء والاسافل من وقوع هذا الاختلال وقتل بعضهم رشقاً بالرصاص منهم والي الشام احمد باشا وبعض رؤساء الجند وصلب كثيراً ممن ثبت عليهم الاشتراك في هذا الاثم الكبير

وعُوِّض على المنكوبين من مال الدولة والاهلين ولكن لا بالانصاف فاغتنى بعضهم وكان فقيراً وافتقر بعضهم وكان غنياً واصبح الناس شرعاً في الشؤون الاجتماعية الى غير ذلك من المنافع التي تمخضت عنها تلك المضار . ولولا ما ابداه الامير الخطير السيد عبد القادر الحسيني الجزائري الشهير وبعض من حذا حذوه من عقلاء الدماشقة في حماية المسيحيين لازداد الشر نفاقاً والعقدة ارتباكاً

وممن احسن الخدمة من الولاة المتأخرين في دمشق ضيا باشا الذي ولي الشام اشهراً في خلال سنة ١٢٩٣ وقد اشتهر بحفظه للآثار والعاديات وبث روح الصدق والاخلاص في قلوب الاهلين وشفقته عليهم شفقة مجردة عن الغرض . ومدحت باشا ذاك الرجل الذي يُرَدُّ تاريخ العمران في سورية الى عهده فانهُ اسس مدارس ابتدائية واعدادية ومدرسة للصنائع ووسع بعض الطرق وفتح الاسواق واقام الحدائق للنزهة الاهلين وكفاه طريق الشوسه بين مدينتي طرابلس وحمص الذي أُسس بمال الوطنيين وأُدير بايديهم . وانهُ للوزير المتفضل على كل من أُنقذ من ظلمة الأُمية من الشبان وجاء ايضاً مصطفى عاصم باشا المشهور باستقامته وغيرته على الامة والدولة فقام ببعض الآثار الا ان المنية عاجلته بعد ان حكم قرابة سنتين . وكذلك الوالي الحالي حسين ناظم باشا صرف وكدهُ لتشييد البيمارستان ودار المعتوهين في غربي البلد فنجزا في العام الماضي على اجمل وجه ثم بُدئ بانشاء دار للحكومة لائقة لان الموظفين كانوا حتى اليوم يقيمون في دار هي للسكنى اليق منها بدار حكومة

وكادت تنتهي الثكنة التي بدئ بانشائها في غربي المدينة منذ مدة وقد كلفت ٦٣

الف ليرة عثمانية عدا جماعات الجند النظامي الذي سُخِّر للعمل بها والاحجار الضخمة التي نُسلت من ابراج القلعة القديمة ونُقلت لتُعمر بها

وفي ١٧ تموز (يوليو) سنة ١٨٩٤ نجز ثاني خط حديدي في سورية وهو خط دمشق وحوران طوله مائة كيلو متر وفي شهر آب (اغسطس) سنة ١٨٩٥ احتفل بافتتاح خط آخر بين بيروت ودمشق طوله ١٤٧ من الكيلو مترات فاوصل بالأول . وقد كان يُرجى من هذا المشروع ما يُرجى عادة من قطار البخار اذا انتهب السباسب والقفار . فتكثر المواصلات والاختلاط وتزيد حركة التجارة والزراعة ويتوفر الصادر والوارد الاّ ان الامر جاء على عكس المبتغى وابى سوء بخت هذا القطر والشقاء اليفهُ في كل ادواره ان يؤتيهُ هذا الخير ايضاً ولو بخط حديدي مُدَّ بيد اجنبية فلم تراعِ الشركة مصالح الركاب والتجار خلافاً للخطط التي تسير عليها سائر الشركات التجارية في البلاد المتمدنة من مراعاة شعائر كل قبيل والقيام على ما يُوفر الراحة والنظر في ما يخفض الاجور . فنفر القوم منها والنفوس من عادتها ان تنفر ممن يستخف بها ولا يحفل بشأنها

استعملت مركبات للركاب لا تليق الاّ بالبهائم ولم تبنَ محطات مناسبة وامكنة للانتظار وحدِّث ما شئت ان تحدث عن محطة البرامكة في ظاهر المدينة وكأن الشركة اختارتها فجعلت اقرب محطة منها من احقر محطات العالم . خلِّ عنك معاملة موظفيها للاهلين معاملة يشمئز منها اخسُّ حيوان ناطق

اما من حيث الاقتصاد فقد كان البريد بين دمشق وبيروت اسرع تبادلاً ايام كانت شركة طريق الحوافل بين المدينتين فقد كانت الرسالة تصل في يومين من بيروت الى دمشق وبالعكس اما الآن فيستغرق وصولها اربعة ايام . فضلاً عن ان الطريق بين المدينتين ينسدّ بالثلوج كل عام مرة او مرتين تدوم المرة زهاء اسبوعين او ثلاثة وتنقطع المواصلات بتة مما لم يحدث من قبل

وكانت الشركة في اول نشأتها سيّرت قطاراً ليلياً بين بيروت ودمشق ليقل ركاباً وبضائع ويأخذ البريد فالغتهُ بعد سنة ثم استُرضيت فعينت ثلاث ليال في الاسبوع ثم حنقت من الحكومة المحلية لبعض شؤونها فابطلت القطار الليلي جملة واكتفت بتسيير ثلاث قطارات في النهار احدها للركاب والاثنان للبضائع تسير في هنيهة متقاربة فتقطع المسافة بين دمشق وبيروت في تسع ساعات على حين ان الحافلة كانت تقطعها في ١٢ ساعة بخيلها وبغالها . واكتفت بتسيير قطار دمشق وحوران ثلاث مرات في الاسبوع على قرب المسافة وسهولة الطريق بخلاف

سكة بيروت فانها في اودية وشعاب وعقاب تشبهُ الاراقم في انسيابها وتلوّيها وزد على ذلك أن هذه السكة لا تُعدُّ من ذات السير السريع بل هي تراموای بخاري وسيرها بطيءٌ ليس إلاَّ

وكانت شركة العربات والحوافل بين دمشق و بيروت تستخدم كثيرًا من ابناء البلاد وتؤدي اليهم رواتب متناسبة مع اقتدارهم وحسن بلائهم اما الآن فقد اكتفت شركة السكة الحديدية ببعض فتيان من الوطنيين تنقدهم من الدراهم ما يقيهم الجوع فقط واختصت رجالها بالخدمات الرابحة كان عند الشركة الخالية الف بغل وحصان فلو فُرض انها كانت تُطعم الدابة في اليوم نصف مدّ من الشعير يساوي من ثلاثة الى اربعة قروش واحيانًا اكثر من ذلك عدا العلف والتبن والكلأ فكم كانت تستنفد في السنة من هذه الاصناف . وكفى برهانًا على خسارة البلاد من هذا الوجه ان كورة البقاع كاد يسرع اليها الخراب لما سقطت شركة الحوافل لان منها كانت تبيع محصولاتها . وقد بلغت واردات الشركة لعام ١٨٩٩ — ٩٠٤٩٢٧٤ قرشًا اميريًا وعدد الركاب بين دمشق و بيروت وحوران ١٥٩٣٧٢ نفسًا بزيادة ٨٧٦٥ عن السنة التي قبلها والمنقولات ٩٠ الف طن بزيادة ١٣ الفًا عن العام المنصرم . ولعلَّ الشركة الجديدة التي اخذت على عهدتها ادارة هذه السكة في العام الماضي تسعى في تحسين حالتها فترفع شكواها من الخسارة وشكوى الناس من سوء الادارة

ومنذ امد غير بعيد اشتدَّ اللغط بشأن انشاء سكك حديدية جديدة الاولى من حيفا فدمشق فبغداد فخليج فارس والثانية من دمشق فحماة فحلب والثالثة من دمشق الى مكة . الاَّ ان هذه الاعمال على التغالي بامرها فما فتئت كلامًا في كلام . ومن عادة الشرقيين ان يتظاهروا بالقول ويطنطنوا به حتى اذا حقت كلمة الفعل لبدت عجاجتهم وغاضت مجاجتهم ولكن المستقبل كشَّاف الخفايا يدلُّ على الاقتدار الحقيقي كما يدلُّ على العجز المموَّه

يُتبادل البريد الآن بين دمشق والبلاد الشرقية والشمالية وعالات الولاية مرة في الاسبوع غالبًا مع السعاة . والانتظام معدوم في ادارة البريد والبرق هنا وكم من تحاريرفقدت او فتحت ومن رسائل برقية تأخرت وعُطلت ومن جرائد ومجلات أُحرقت او سرقت

للمجالس البلدية في البلاد المتمدنة شأن واي شأن فاذا قلت البلدية فكأنك تعني ادارة يبدها حضارة مدينة وعُضارتها ممَّا هو على طرفي نقيض عندنا فقد أُنشئت بلدية دمشق منذ نحو ثلاثين سنة فكانت ولا تزال مأكلة تُسدُّ باموالها النهمات تؤخذ من الصعاليك مكسًا واختلاسًا بالدانق وتُعطي لمن لا خلاق لهُ بالدنانير . ومنذ عشرين سنة اخذت الدولة للخزانة نصف واردات البلدية ثم احدثت ضريبة لتقاضي من اللحم . وتراوح واردات البلدية

مساناةً بين ١٢ و ١٣ الف ليرة عثمانية هذا اذا تُركت لها الـ ٤٥٠٠ ليرة التي تتناولها ادارة الجامع الأموي

ولئن عُنيت البلدية برصف بعض طرق البلدة وتوسيع بعض شوارعها الاَّ ان ما صرفتهُ لا يوازي ما تتقاضاهُ الاهلين . وهي الآن مضطرة الى اداء رواتب للضابطة والشرطة ومشاهرات لبعض المتنفذين وغاضة الطرف طوعاً او كرهاً عن القيام بما يجب عليها من الكنس والرش ورفع القاذورات واصلاح الطرق وانارة الاحياء والشوارع الى آخر وظائفها فاصبح مجلسنا البلدي كما قيل لاهو ميت فيُنسى ولا حيٌّ فيرجى يُذكّر بديوان الحسبة الذي كان يقوم قديماً بهذه الاعباء فينفق الاالسنى بالترحم على أيامهِ

ولعمري لو سُلّمت واردات البلدية الى رجل امين عارف باصول الادارة كفاية لتنفيذ قانون البلدية قولاً وفعلاً مكفوفة عنهُ ايدي المسيطرين مع رخص مواد البناء واجور العملة وكثرة المياه لاصبحت دمشق في بضع سنين زهرة البلاد العثمانية ولربما ضاهت المدن الاوربية بانتظامها وحسن هندامها

غوطتها

قلَّ من يدخل دمشق او يقرأ عنها شيئاً في الاسفار الاَّ تطرق اذنهُ كلمة "غوطة" وهي الكورة التي عُدّت من مفاخر هذه الحاضرة قديماً وحديثاً لخصب ارضها وكثرة مياهها ووفرة متنزهاتها وضياعها . يُروى ان المأمون اقسم وقد نظر يوماً الى اشجارها وبنائها انها خير مغنى على وجه الارض وقال عجبت لمن سكن غيرها كيف ينعم معهذا المنظر الانيق الذي لم يُخلق مثلهُ

قال ياقوت والغوطة من الغائط وهو المطمئن من الارض وجمعهُ غيطان والغوط وقال ابن الاعرابي الغوطة مجتمع النبات وقال ابن شميل الغوطة الوهدة في الارض المطمئنة والغوطة هي الكورة التي منها دمشق استدارتها ثمانية عشر ميلاً يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ولا سيما من شماليها فان جبالها عالية جدًّا ومياهها خارجة من تلك الجبال وتمدّ في الغوطة في عدّة انهر فتسقي بساتينها وزروعها ويصبّ باقيها في أجمة هناك وبحيرة . والغوطة كلها اشجار وانهار متصلة قلَّ ان يكون بها مزارع للمستغلات الاَّ في مواضع يسيرة وهي بالاجماع انزهُ بلاد الله واحسنها منظراً وهي احدى جنان الارض الاربع صُغد سمرقند ونهر الأبلة وشعب بوّان والغوطة أجلُّها . ويصعب تحديد الغوطة بالتدقيق والغالب ان كل ما يُحيط بالفيحاء من قرى شجراء يدخل تحت هذا الاسم . وذكر صاحب نزهة المشتاق ان طولها مرحلتان في عرض مرحلة وبها ضياع كالمدن مثل المزّة وداريا وحرستة وكوكبا وبلاس وكفر سوسة وبيت الاهو

وبها جامع قريب الشبه بجامع دمشق . ومن بابها الغربي وادي البنفسج وطوله اثنا عشر ميلاً وعرضهُ ثلثة اميال وكلهُ مغروس باجناس الثمار يشقهُ خمسة انهار — كذا قال ولا يعرف اليوم البنفسج ولا واديهِ

وقال الاصطخري ان عرض الغوطة مرحلة في مرحلتين وروى المقدسي انها تكون مرحلة في مثلها يعجز عن وصفها . وفي رأي شيخ الرَّبوة ان الغوطة هي من حيز دمشق ناحية يكون طولها ثلاثين ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً مشتبكة القرى والضياع لا تكاد الشمس تقع على ارضها لاختفاق اشجارها والتفاف ازهارها . ولعلَّ ما ورد في شعر وجيهِ الدولة بن حمدان من ذكر الغوطة بلفظ التثنية يُراد بهِ غوطة شرقية وغوطة غربية وهو قولهُ

سقى الله ارض الغوطتين واهلها فلي بجنوب الغوطتين شجونُ
فما ذكرتها النفس الاَّ استفزَّني الى يرد ماء التَّربين حنينُ
وقد كان شكّي للفراق يروعني فكيف يكون اليوم وهو يقينُ

هذا مختلف اقوال قدماء الجغرافيين في تحديد الغوطة ولم اعثر على كلام للمحدثين في هذا الباب

جبالها

قال احد السياح احسن مناظر سورية ثلاثة جبال جبل الصير في نابلس وجبل الكرمل في حيفا وجبل الشيخ المعروف في الكتب القديمة بجبل حرمون ولو انصف لعدَّ ايضاً جبل قاسيون المطل على دمشق وغوطتها الغناء . ولقد كان لهُ في القديم شأن ما برح يتردد ذكرهُ على المدى وفيهِ من القصور والصروح وفي سفحهِ من المتنزهات والجنان ما يكل عن وصفهِ اللسان . وللعامة قصص على مشاهد الجبل لا تزال دائرة على الافواه وما هي في الحقيقة الاَّ من قبيل الامور الروحانية واكثرها ان لم اقل كلها لا يثبت تاريخيًّا

ويتسلسل من جبل قاسيون جبل كان يُدعى جبل سَنير واليوم يقال لهُ جبل قلمون او الحلو . ويؤخذ من عبارة ابي الفداء ان جبل الثلج وجبل لبنان وجبل اللُّكام سلسلة متصلة بعضها ببعض حتى صارت جبلاً ممتدًّا من الجنوب الى الشمال فالطرف الجنوبي لهذا الجبل بالقرب من صفد قال في رسم الارض طرف جبل الثلج يمتد الى الشمال و يتجاوز دمشق و يسمى اذا صار في شماليها جبل سنير وجانبهُ المطلُّ على دمشق قاسيون و يتجاوز دمشق و يمر غربي بعلبك و يسمى الجبل المقابل لبعلبك جبل لبنان واذا تجاوز بعلبك وصار شرقي طرابلس الشام يسمى جبل عكار ثم يمر شمالاً و يتجاوز حمص طرابلس الى حصن الاكراد و يسامت حمص من

غربيها على مسيرة يوم ويمتد ويتجاوز سمت حماة ثم سمت شيزر ثم سمت افاميه وبلبسي حين ما يكون قبالة هذه البلاد جبل اللكام قال البحتري

وتعمَّدتُ ان تَظَلَّ ركابي بين لُبنانَ طُلَّعاً والسنيرِ
مشرفات على دمشق وقد اعـــرض منها بياض تلك القصورِ

وعلى ثلاث ساعات من جنوبي دمشق سلسلة جبال تتصل بجبال الشيخ وعجلون وحوران تدعى غالباً باسماء قراها القريبة منها كأن يقولوا جبل الكسوة وجبل الحرجلة وغيرهما

وسيأتي الكلام على متنزهات دمشق في الجزء التالي محمد كرد علي

اغنياء اميركا

(١١) اندرو كارنجي

وهو اشهر اغنياء اميركا بلا استثناء لما اتاهُ ويأتيهِ من الاعمال الخيرية وقد قضى على نفسهِ ان ينفع العالم بمالهِ قبل وفاتهِ عوضاً عن ان يتركهُ لابنتهِ وهي وحيدة . ولا عجب بنا الى ذكر تاريخ حياتهِ فقد ذكرهُ المقتطف في عدد سابق ويكاد القارئ لا يفتح جريدة يومية او شهرية الاَّ يرى لهُ ذكراً فيها خصوصاً بعد ما وهب مليوني جنيه لمدارس اسكوتلاندا مسقط رأسهِ . وقد قال مرة ان من يموت غنياً يموت حقيراً وبذلك اوضح المسئولية الادبية العظيمة التي على اصحاب الثروة ويُعلم جمهور القراء ان كارنجي ولد فقيراً وكان يشتغل في بدء امره ساعياً في بيت التلغراف ثم تعلَّم العمل بهِ وما زال يجدُّ ويرتقي من عمل الى آخر حتى صار ملك الصلب (الفولاذ) في اميركا . يُروى عنهُ انهُ قليل الكلام كثير الافتكار حتى قالت عنهُ احدى السيدات لو اوقفتهُ تحت القبة الزرقاء والسماء صافية الاديم وسألتهُ عن لونها لافتكر هنيهة قبل ان يبدي جواباً

ولكارنجي ولع شديد بثلاثة اشياء كان يعلّل النفس بها وهو فقير وعقد النية على اتمامها عند ما يصير غنياً . اولها اقتناء المكاتب العمومية وذلك لانهُ اعتاد وهو فقير ان يستعير كتباً من احد المحسنين وكان قد وقف مكتبتهُ للعمَّال فكان يُمرّ بقراءتها وينتظر يوم السبت بفروغ صبر حتى يستبدل كتاباً قرأهُ بآخر . وبلغ عدد المكاتب التي انشأها نحواً من تسعين مكتبة في مدن متفرقة في سكوتلاندا واميركا وبلغ ما انفقهُ على بعضها نحو مئتي الف جنيه عدا